العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
منشئها ورئيس تحريرها حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
١٠٠ ريال للأفراد و ٢٠٠ ريال لغيرهم
الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء ١٧ ريالاً

العنوان
حي الورود - شارع محمد المالص - هاتف ٤٦٢١٢٢٢
ص ب ١٣٧ - الرمز البريدي ١١٤١١
الرياض - المملكة العربية السعودية

ج ١، ٢ س ٢٩ - رجب/ شعبان ١٤١٤هـ - كانون٢/ شباط (يناير/ فبراير) ١٩٩٤م

الكتابة في عشر التسعين

أَصالةُ الرأْي، وسَدادُ القول، وصِدْقُ التمييز بين الأمور، كل ذالك لايختص بزمن دون آخر من أزمان عمر الإنسان، إلاّ أنّ المرءَ كلما تقدمت به السن كان أكثر تجارباً وخبرةً وإدراكاً لحقائق كثير من أمور الحياة. ومن هنا قد يكون أَسَدَّ رَأْيًا ممن لم يَمُرَّ بحياته من السنين ماهيّأً له منها مجالاً للتجارب. ومن هنا قال المتنبي:

وَمَا الحَدَاثَـةُ عَنْ حِلْمٍ بِمَانِعَـةٍ   قَدْ يُوجَدُ الحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ والشِّيبِ

إلاّ أنّ من المدرك بداهة أن المرء كلما أوغل في الحياة وبلغ سنًّا عالية ضَعُفَتْ لديه جميع الوسائل التي تُكْسِبُ جسمَه صحةً، وعقلَهُ حِكْمَةً، ورأيهُ بَصيرة، ومع ذالك فلن يعدم بعض من بلغ أقصى مراحل الشيخوخة من الحفاظ على ما اكتسب في حياته الطويلة من تجارب ومَيّز فيها بَيْنَ مختلف الأمور.

ولهذا فليس بِبِدْعٍ أَنْ نرى زُهَيرَ بنَ أبي سُلْمَى وقد تجاوز الثمانين يحفل شعره بالحكم كما في معلقته:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ   ثَمَانِينَ حَوْلاً لاَ أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

ونجد في شعر عَمْرو بن أحمر الباهلي قصيدته التي مطلعها:

بَانَ الشَّبَابُ وَأَفْنَى ضِعْفَهُ الْعُمُرُ   لله دَرُّكَ أَيَّ الْعَيْشِ تَنْتَظِرُ؟!

وهي تعد من روائع ذالك الشعر، وقد نظمها بعد أن بلغ ثمانية وثمانين سنة ويقول فيها:

هَلْ فِي الثَّمَانِ مِنَ التِّسْعِينَ مَظْلَمَةٌ   وَرَبُّهَا لِكِتَابِ الله مُسْتَطِرُ

ويخاطب الأمير الذي شكا إليه مايعانيه أبناء البادية من عُمّالِهِ فيقول:

وَلاَ تَقُولَنَّ زَهْواً مَاتُخَبِّرُنِي   لَمْ يَتْرُكِ الشَّيْبُ لِي زَهْواً وَلاَ الْعَوَرُ

ويقال ـ وهذا مالاأثبته ـ أن (جورج بَرْنَارْدْ شُوْ) الكاتب الإنجليزي المعاصر أبدع

الأوضاع السياسية والحضارية في الحجاز

خلال عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور

[١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م ـ ١٥٨ هـ/ ٧٧٤ م]

ـ ١ ـ

كانت المدينة المنورة بأرض الحجاز العاصمة الأولى للدولة الإسلامية، خلال النصف الأول من القرن الهجري الأول، ثم انتقلت العاصمة إلى الكوفة في عهد الخليفة علي بن أبي طالب (٣٦هـ/ ٦٥٦م ـ ٤٠ هـ/ ٦٦٠م)، وفي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١ هـ/ ٦٦١م ـ ٦٠ هـ/ ٦٧٩م)، انتقلت الخلافة الى دمشق وبقيت عاصمة للدولة الأموية لفترة تزيد عن التسعين عاما (٤١ هـ/ ٦٦١ م ـ ١٣٢ هـ/ ٧٤٩م)، كما ظهر من السياسيين من كان يبذل كل ما في وسعه لارجاع عاصمة العالم الإسلامي إلى المدينة في الحجاز، وكان أقوى من تزعم حركة سياسية أوشكت أن تطيح بالدولة الأموية، هو عبدالله بن الزبير الذي حارب جيوش بني أمية وتغلب عليها في عدة معارك، لكن حنكة وسياسة الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ هـ/ ٦٨٤ م ـ ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) مكنته من القضاء على ثورة ابن الزبير[1]

ولم يستمر طويلا حكم الدولة الأموية، حيث دب الضعف في كيانها، مع ظهور بني العباس الذين استطاعوا ان ينتزعوا الأمر من بني أمية، وأن يكون السفاح أول خليفة عباسي يستمر في الحكم أربع سنوات (١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م ـ ١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م)، ثم أعقبه الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ هـ/ ٧٥٣ م ـ ١٥٨ هـ/ ٧٧٤م) الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس التي حكمت مايزيد عن خمسة قرون (١٣٢ هـ/ ٧٥٣ م ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م)، الذي كان له من الآثار السياسية والحضارية في جميع أجزاء الدولة الإسلامية مايجعل العديد من المصادر الاساسية تطيل الحديث عن أعماله، بل وتصفه بالمؤسس الأول لدولة بني العباس، ولما كانت منطقة الحجاز جزءاً مُهِمّـا من أجزاء دولة الخلافة العباسية، فإنَّ موضوع هذا البحث سوف يكون مركزاً على أوضاع الحجاز السياسية والحضارية في عهد الخليفة المنصور، حيث ناقش ماظهر في الحجاز من ثورات سياسية ضد حكم الخليفة،

وكيف تم القصاء على تلك الثـورات، مع التطرق لنتـائج تلك الثورات على الجوانب الاقتصاديـة والاجتماعية، ثم نتعرض لما قـدمه الخليفة المنصـور من أعمال خيرية تجاه المجتمع الحجازي.

أ ـ الأوضاع السياسية :

في حقيقة الأمـر أن أرض الحجاز كـانت مهمة لأي خليفـة من خلفاء بـني أمية في الشام أو بني العبـاس في العراق، لكي يبسط نفوذه عليهـا، وتكون ولاية من ولايـاته، وذلك لمكانتها وأهميتها الإسلامية، وكونها أراضي مقدسة وبها الحرمان الشريفان. ففي عهد الخليفة السفاح كان من أول أعماله بعـد توليه الخلافة أن أرسل عمه داود بن علي ليكون أميرا على أرض الحجاز[٢]، في حين أن الفترة التي ظهرت فيها الدولة العباسية، كان يسكن أرض الحجاز عدد من شخصيات البيت الطالبي، الذين ينتسبون إلى كل من الحسن والحسين أولاد علي بن أبي طـالب، وكـان مقرهم مـدينــة الـرسـول ﷺ ومـا حـولها، ومن أهم تلك الشخصيـات الإمام جعفـر الصـادق، والحسن ابن زيـد، وعبـدالله بن الحسن الملقب بـ(المحض) وَوَالـدِهِ محمد، الملقـب بـ(النفس الـزكيـة) وابراهيم وغيرهم عدد كثير[٣] وكان من أخطـر الرجال على ظهـور الدولة العبـاسية عبـدالله بن الحسن وولداه النفس الـزكيـة وابراهيم، لأنهم من أول وهلـة أظهروا عـدم رضاهـم بأن تكـون الخلافة في أبناء عمومتهم من بني العبـاس، وذلك لاعتقادهم أنهم قد خدعوا أثناء الـدعوة السرية لاسقاط الدولة الأموية، في حين أن الـدعوة كانت قد أنشئت ببعض أفراد البيت الطالبي، ثـم انتقلت إلى البيت العبـاسي، فبقوا يدعون سرًّا لـرجل من آل البيت، دون أن يفصحوا لابنـاء عمـومتهم من الطالبيين في ان الخلافـة ستكـون في رجل من البيت العباسي، وليس من البيت الطـالبي، علما أن العديـد من أفراد البيت الطالبي كانوا يظنون أن الخلافـة ستكون فيهم، ومن هؤلاء الأفراد عبدالله بن الحسن وولداه[٤]، ولهذا قامـوا باعـداد العدة والاستعـداد للثورة ضـد العباسيين، منذ أعلن بنو العباس خلافتهم بزعـامة أبي العباس، عبدالله السفاح، وكان عبدالله بن الحسن وولـداه، محمـد النفس الـزكيـة وابـراهيم، هم المتـزعمين للثـورة المنـاوئة لبني العباس، إلا أن سياسة السفـاح كانت تتسم بالمداهنة والمسالمة خـلال مدة خلافته،

فكـان دائما يتصل بالعلـويين في الحجاز، ويطلب منهم الـزيارة في أرض العـراق، إلى جانب أنـه كان يغدق عليهم الأمـوال الطائلة والهدايـا والاقطاعات الـزراعية، حتى استطاع أن يكسب رضاهم، فلم يقـوموا بأي ثورة ضده(٥) لكن هذه السيـاسة التي سلكهـا السفـاح لم تستمر على نفس المستوى من قبـل الخليفة أبي جعفـر المنصـور، وخصوصا مع عبدالله بن الحسن وولديه، ومن كـان يؤيدهم في الثورة ضد العباسيين، فكان دائما يراقب تحركاتهم خطوة خطـوة، فكلما ذهب إلى الحجاز للحج والعمرة بذل مـا في وسعه لمقـابلتهم والتعـرف على مؤامـراتهم ومخططاتهم ضـده، وفي حـالة عـدم مقـابلته، أو تغيب بعض الشخصيـات التي كـان يخاف منهـا على مواجهتـه، يسعى ويلح في السؤال عنهم، لمعـرفة الأسباب التي منعتهم من مقـابلته، ومن المواقف التي تـذكرهـا المصـادر أنـه حج سنة ١٤٠ هــ/ ٧٥٧ م فلم يـر محمـداً وابراهيم، ولـدا عبـدالله بن الحسن، فطلب والـدهما وسـألـه عنهما، والح عليـه أن يخبره أين ذهبـا، فأبـدى عبدالله بن الحسن بعض الأعـذار، ملتمسـا لولـديه من الخليفـة عدم غضبـه منهما(٦). وبهذا فإن الأمـر بدأ يتأزم بين الخليفـة المنصور والطـالبيين، الذين أصبحـوا يجهـزون أنفسهـم للثورة على الخليفـة الذي بـدأ يمارس أيضـا أنواعـا من المضايقـات عليهم، إلى جانب أنه أوقف العطايا والهبات التـي كانت تصلهم أثناء خلافة الخليفة السفاح

ومن أعمال الخليفـة المنصور التي سلكهـا ضـد العلويين، أنـه بـدأ يرسل الأمـراء الأقـوياء الـذين عرف عنهم الحزم والقـوة، ليكـونوا ولاة الحجـاز، ويراقبـوا حركـات العلويين، ويضيقـوا عليهم، ويعاقبـوهم بالسجن والجلـد والتعذيب احيـانا(٧)، إلى جانب ارسال الخدم والجواسيس إلى مكـة والمدينة، ليتجسسوا لصالحه، ويخبروه بكل مايـرون من أعمال العلويين، وكذلك مايقـوم به الولاة الـذين ارسلهم إلى الحجاز من عمل في احكام السيطـرة على المنطقة الحجازية، وقمع الثورات التـي تظهر بها وكان الخليفة أيضا يرسل الجواسيس على هيئة تجار في الأسـواق أو خدم يقومون بالخدمة في الحرمين الشريفين، كالتنظيف وسقـاية الحجيج ومـاشابـه هذه الأعمال، مع العلم ان مهمتهم الأساسيـة التجسس ومراقبة أحوال الحجاز لصـالح الخليفة(٨) وبالرغم مما

كان يدله الخليفة من مراقبة العلويين، فقد نجحت ثورتهم في المدينة المنورة بقيادة محمد النفس الزكية في منتصف عام ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م(٩). وربما كان سبب ثورة العلويين الأساسية في الحجاز أنهم رأوا أن الخلافة قد سُلبت منهم بصنيع بني العباس، عندما نادوا في بادىء الأمر بأن الدعوة في آل الرضي من آل البيت، وبعد نجاحهم في اسقاط دولة بني أمية حصروا الخلافة في البيت العباسي، لهذا بذل العلويين كل مافي وسعهم للثورة ضد بني العباس وكسب مساعدة وولاء الحجازيين الذين كانوا هم أنفسهم يريدون التخلص من الخلافة العباسية، كما فعلوا مع عبدالله بن الربير في عهد الخلافة الأموية، وذلك ربما طمعا في ارجاع عاصمة الخلافة الإسلامية إلى أرض الحجاز، كما كانت في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين.

وبالرغم من أن العلويين ظهروا كثائرين في أرض الحجاز ضد ولاة وممثلي الخلافة، إلا أن الخليفة لم يكن يتسرع في ارسال جيش يقضي على ثورتهم، وإنما انتظر حتى يرى ماذا يفعلون، فكان ان قام محمد النفس الزكية وكتب رسالة مطولة يذكر فيها أحقية أولاد علي بن ابي طالب في الخلافة، لمواقف جدهم علي بن أبي طالب في خدمة الإسلام، ثم لكونه بين أول من آمن بدين الإسلام، ثم استطرد بعدد مناقب الطالبيين، وعلى العكس يذكر العديد من مثالب العباسيين وأجدادهم، ثم يطلب في النهاية أن يتنازل الخليفة العباسي عن الخلافة، ويتركها لأهلها أولادهم العلويين، فرد المنصور على تلك الرسالة برسالة مطولة أخبر فيها بأن بني العباس الذين استطاعوا ان يقضوا على بني أمية، في حين أن أولاد علي بن أبي طالب فشلوا في ذالك، ثم عدد أشياء عديدة من مناقب العباس عم الرسول ﷺ ، وكذلك أولاده، وبهذا فهم الأحق بزعامة الخلافة الإسلامية، ولن يتنازل عن الخلافة كما طلب محمد النفس الزكية، ثم قام فاعد العدة وجهز الجيوش لارسالها إلى الحجاز، وقمع ثورة العلويين(١٠)، وقد تزعم الجيش الذي أرسل من العراق ولي عهد الخليفة المنصور عيسى بن موسى فصار في عدد أربعة آلاف جندي سالكا طريق الكوفة إلى الحجاز، وبعد وصوله استطاع أن يستميل عدداً من رجال محمد النفس الزكية، حتى لم يبق معه إلا قلة

قليلة، ثم حاربه عدة أيام، حتي قضى عليه بالقتل والقضاء على ثورته قضاء تاما[11].

ومع ان ثورة محمد النفس الزكية كانت نهايتها الفشل لاسباب قد لايكون مردها قوة الخليفة المنصور أو الجيش الذي أرسله تحت قيادة عيسى بن موسى، لكن يبدو أن سبب الفشل عائد لما قام به محمد النفس الزكية من ارتجالية في ثورته، بل ولأسباب أخرى عدة نوردها فيما يلي:

(أ) ظهرت الثورة في بلاد الحجاز فباءت بالفشل، لما تتصف به هذه البلاد من صعوبة التضاريس والمواصلات التي تصلها بغيرها من العالم، ولضيق وقلة الغذاء بها، فهي فعلا لم تكن أرضاً غنية تسد حاجة سكانها، بل كانت تعتمد على ما يأتيها من أطراف العالم الإسلامي، كبلاد مصر، والعراق واليمن وغيرها، وأكبر دليل على مصداقية قولنا أنه أثناء سماع الخليفة قيام ثورة محمد النفس الزكية انه أمر بالطريق البري والبحري الذي يصل بلاد الشام ومصر ببلاد الحجاز، في أن يقفل فلا تصل إليهم المعونات والمواد الغذائية التي كانت تأتيهم من تلك الأطراف[12]

(ب) أن من يقارن بين الدقة في التنظيم والترتيب من قبل الخليفة المنصور ومن قبل محمد النفس الزكية، يجد أن الأخير كان ارتجاليا في تنظيمه، بل وفي علاقته بمن انضم معه على الرغم من كثافة جنده حتى ان الطبري يذكر في إحدى رواياته انه قد اشترك معه في ثورته مايزيد عن مئة ألف رجل من الحجازيين[13]، في حين أن عيسى ابن موسى لم يأت بأكثر من أربعة آلاف جندي، فسبب فشله إذاً عدم التنظيم وعدم جمع كلمة من انضم معه على رأي واحد، إلى جانب تعدد الآراء في اتخاذ القرار لمقابلة جيش المنصور، فهناك رواية تذكر ان الحجازيين الذين انضموا مع محمد النفس الزكية قد اختلفوا فيما بينهم في الطريقة التي يقاتلون بها جيش الخليفة، هل تكون دفاعية أو هجومية، في حين أن فئة أخرى كانت لاترى في الحرب فائدة وطلبوا من محمد النفس الزكية أن يخرج من المدينة، إما إلى السوادي، أو إلى أرض مصر، حتى يستعدوا استعداداً تامًّا، ثم يعودوا لمقابلة جيش الخليفة، وهذه الاختلافات بين رجال محمد النفس الزكية مكنت عيسى بن موسى مع أربعة آلاف من الجند في أن يقضوا على تلك الثورة قضاء مبرماً

(حـ) لم تكن سياسة محمد النفس الزكية في نفس المستوى الذي كان يتصف به الخليفة أبو جعفر المنصور، ولا حتى قائد جيشه الذي ذهب إلى الحجاز، عيسى بن موسى، فمحمد النفس الزكية كان في مرتبة أقل من الخليفة وقائده لعدم حزمه وضبطه لرجاله الذين قاموا لمساعدته، ثم التسرع في ثورته، بل وفي قراراته، حتى أنه ليذكر انه في أول خطبة خطبها، وكانت حوله اعداد كبيرة من الرجال، قال لهم من يريد البقاء معي فليبق ومن يريد الذهاب فإن له ذلك ولابيعة لي على من يغادر، وإنما هو في حل[١٥]. فمثل هذا الاعلان في الخطبة قد يقلل من شأنه، وفعلا تركه أعداد كثيرة ممن كان معه، ولم يبق في آخر أيام الثورة إلا عدد قليل[١٦]

وظهور ثورة محمد النفس الزكية في المدينة بأرض الحجاز كانت لها نتائج سلبية على المجتمع الحجازي، وخصوصاً فيما يتعلق بعلاقة الخليفة المنصور بالحجازيين، حين قيامه بحركة الثورة قام عدد كبير من رجالات بني هاشم ومن القرشيين بوجه عام بمساندة العلويين ضد الخليفة المنصور، وممثليه في أرض الحجاز، إلى جانب ظهور أعداد كثيرة من الموالي والعبيد وجميع القبائل العربية المحيطة بالمدينة، أمثال قبائل مزينة، وجهينة، وبني سليم، وغطفان، فانضمت إلى محمد النفس الزكية لمحاربة المنصور[١٧] ومع أن المصادر قد أشارت إلى كثرة الأعداد التي انضمت للعلويين إلا أننا لانستطيع أن نعثر على رواية تذكر اعدادهم على وجه الدقة، في حين أن الطبري أشار بأنهم قد يتجاوزون المئة ألف نسمة[١٨] في حين انه كان هناك بعض القرشيين والموالي والعبيد المقيمين في أرض الحجاز والمؤيدين للخليفة المنصور، إلا أنهم بدون شك لم يستطيعوا ولم يقدروا على مواجهة الثوار، فهذا كان السبب في ارسال عيسى بن موسى بأربعة آلاف رجل، للتصدي للثوار وهزيمتهم وقتل أغلبهم[١٩]

أيضاً طبقات العلماء ورجال العلم كانوا أكثر تعاطفا مع العلويين، ومن أشهر العلماء في الحجاز عبدالملك بن جريج، وسفيان بن عيينة وإمام دار الهجرة مالك بن أنس، الذين يُروى انهم كانوا مؤيدين لمحمد النفس الزكية وثورته، وخصوصا مالك ابن أنس الذي ذكر عنه أن أهل المدينة وماحولها جاءوا إليه يستفتونه في حكم البيعة

التي أعطوها الخليفة المنصور، في حين انهم يرعون نقضها، فكانت فتواه أنهم اعطوا البيعة على إكراه وأي بيعة على إكراه فهي باطلة، وبهذه الفتوى يذكر انه خرج عدد كثير من أهل الحجاز مع النفس الزكية[٢٠]

ومع ان اغلبية أهل الحجاز كانت إلى جانب العلويين إلا أن الهزيمة كانت حليف محمد النفس الزكية وأعوانه وذالك لأسباب سبق ذكر العديد منها[٢١]، ثم ان الخليفة المنصور لم يكن يتورع عند هزيمة العلويين من معاقبة كل من قدم المساعدة لمحمد النفس الزكيةوأهل بيته، فتذكر بعض الروايات انه ارسل إلى واليه على المدينة جعفر ابن سليمان العباسي ليقبض على كل من ساعد العلويين من القرشيين فيضعه في السجن أما من تثبت مساعدته من الموالي فيقطع أيديهم وذالك عقابا لهم على ماعملوا في مناصرتهم العلويين ضد الخلافة[٢٢]، أما القبائل العربية التي كان أغلبها قد انضم إلى العلويين فلم يسلموا أيضاً من العقاب، فيذكر ان المنصور أمر بجمع اربع مئة من أعيان قبائل مزينة وجهينة مع بعض العلويين ثم انزل بهم العقاب الجماعي الذي كان متنوعا فمنهم من سجن ومنهم من ضرب وقتل[٢٣]، ولم يكن عقاب المنصور لمن ثار مع العلويين مقتصرا على الأعيان من القبائل، أو بالتنكيل الجماعي كما فعل مع شيوخ القبائل، بل كان أيضاً يبالغ في إيذاء من يفشي اسرار جواسيسه الذين يرسلهم إلى الحجاز لمراقبة النفس الزكية، وتثبت إدانته، فإنه لايتوانى في انزال العقاب به وأكبر مثال على ذلك مايذكر عن رجل من قبيلة مزينة من أنه أطلع على معرفة بعض جواسيس المنصور الذين يراقبون حركات العلويين، فاوصل هذا الرجل خبرهم إلى محمد النفس الزكية، وأهل بيته، فوصل الخبر إلى المنصور فامر بالقبض على ذلك الرجل، وجلده سبع مئة وقيل تسع مئة سوط جزاء لما فعل من مساعدة للعلويين[٢٤]

أيضاً نجد أن بعض العلماء ورجال الفقه والحديث في أرض الحجاز لم يسلموا من عقاب المنصور، وأكبر دليل على ماحدث هو أن انزل والي الحجاز جعفر بن سليمان العباس العقاب بالإمام مالك، بسبب فتواه التي أعطاها أهل الحجاز، فيذكر انه ضربه سبعين سوطاً ثم خلعت يده من كتفه فبقي معاقا طول حياته[٢٥]

وماقام به الخليفة المنصور أو ولاته في الحجاز ضد من ساعد الثوار ليس بالأمر الحتمي حيث ان الوضع السياسي يحتم عليه وعلى ممثليه في الحجاز وغيرها ان يحافظوا على كيان الدولة الناهضة، ويقمعوا جميع الثورات التي تظهر ضدهم، سواء كانوا من قبيلة قريش أم غيرها، وتذكر المصادر أن الذي أخذ القرار والتنفيذ بضرب الإمام مالك هو أمير المدينة جعفر بن سليمان، دون علم الخليفة المنصور، بل وتذهب إلى أبعد من ذلك في أن الخليفة عندما سمع بما فعل جعفر لمالك ذهب إلى الحجاز، وعزل الوالي من الإمارة، ثم استأذن من الإمام مالك موضحا له انه لاعلم له بما فعل جعفر بن سليمان، ولم يكن لديه علم بما أنزل به من عقوبة، ثم طلب من مالك إذا أراد أن ينزل العقاب بجعفر فلم يكن من مالك إلا ان عفا عنه[٢٦] والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل من المعقول ان يقوم جعفر بن سليمان بضرب مالك ومعاقبته دون علم الخليفة المنصور؟ وللاجابة على هذا السؤال فانه من المستبعد صحة كل ماقيل، ولايمكن أن يقدم جعفر بن سليمان على عمله فيما يتعلق بمالك إلا بإشارة من الخليفة والأدلة التي تجعلنا نجزم بأن الخليفة هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في ضرب مالك عديدة، ومن أهمها

(أ) أن ماسطرت المصادر الأساسية عن حنكة وسياسة الخليفة المنصور تشير إلى أنه ذالك الرجل القوي الذي كان قابضا على زمام أمور الدولة بيد من حديد، وبهذا فإنه ليس من السهل ان يتصرف جعفر بن سليمان دون علمه، وخصوصا في ضرب إمام دار الهجرة ومؤسس المذهب المالكي، مالك بن انس وفي حالة القائنا نظرة على سياسة المنصور تجاه مراقبة أحوال الحجاز، ومتابعة سير الأمراء الذين كان يرسلهم لضبط البلاد له نستطيع ان نعرف مدى سيطرته على البلاد ومدى مركزيته في حكم الأجزاء البعيدة عن مركز الخلافة في العراق[٢٧]

(ب) أن جعفر بن سليمان لم ينزل العقاب بالقرشيين والموالي الذين ساندوا العلويين حتى جاءه الأمر من المنصور في أن ينفذ أمر العقاب عليهم فيسجن القرشيين ويقطع أيدي الموالي[٢٨]، وهذا الأمر يكفي دليلاً على أن جعفرًا لم يضرب مالكا إلا بإشارة من الخليفة

(حـ) ان عزل جعفر بن سليمان من منصبه كأمير للمدينة مقابل ضربه الإمام مالك لم يكن في اعتقادي إلا صوريا، إذ رأيناه يُعطى إمارة الحجاز كاملة في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ هـ/ ٧٧٤م - ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م) وتوليته هذا المنصب في عهد المهدي ولد أبي جعفر المنصور لايستبعد ان تكون وصية يمدها الولد لوالده، مكافأة له على ماقام به من ضرب مالك وغيره من أهل الحجاز(٢٩).

(د) أن من يتابع الفترة الزمنية التي أعطى فيها الإمام مالك فتواه كانت في منتصف عام ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م مع أن جعفر بن سليمان لم يعين أميراً على المدينة إلا في ربيع الأول من عام ١٤٦ هـ/ ٧٦٣م، وهذه الفترة الزمنية تكون كافية للخليفة المنصور وجعفر بن سليمان في أن يحيكا الخطة في ضرب مالك(٣٠)، وبالتالي يذهب الخليفة ليستأذن من مالك فيما حل به، ثم يعزل الأمير وبهذا يكون قد ظهر أمام الرأي العام بأنه يحترم ويجل العلماء ويدافع عنهم، هادفا إلى التنصل من اظهار نفسه بالمعتدي على رجال العلم، وبالتالي يكسب رضا الناس في عمله، وذلك بعد الذي قام به من الالتقاء بمالك وطلب العفو منه، بل واخباره بعدم معرفة ماجرى في مسألة ضربه

وظهرت ثورة في المدينة بعد ثورة محمد النفس الزكية، عرفت في المصادر التاريخية بثورة السودان، وكان ظهورها بعد هزيمة العلويين، وقتل معظمهم، ففي الوقت الذي واصل الخليفة المنصور انتصار جيشه بقيادة عيسى بن موسى، كان قد أمر بارسال أمير يدعى عبدالله بن الربيع(٣١)، ليكون والياً على المدينة، وحين وصول هذا الأمير إلى مقر الإمارة في المدينة، أطلق العنان لجنوده ليعيثوا في الأسواق والشوارع، وكذلك المزارع فيدمروها، مع العلم ان بعض أعيان وموالي وعبيد المدينة جاءوا إلى الأمير عبدالله بن الربيع، ليشتكوا إليه من جنوده، فلم يسمع لهم، ولم يردع جنوده عما كانوا يقومون به من أعمال تخريبية، مع العلم ان فوضى أولئك الجنود كانت في أماكن متعددة من المدينة، إلاّ أن احتكاكهم كان أقوى بالعاملين من طبقة العبيد في الأسواق والمزارع وغيرها، حيث تم الاعتداء على بعضهم بالقتل، وخصوصاً من كان يمارس التجارة وبعض الحرف اليدوية، فاعتدوا عليهم في سوق المدينة، وقتل بعضهم، وهذا مما أدى إلى تجمع العبيد في المدينة، ثم التصدي لعبدالله بن الربيع ومحاربته وطرده وجنوده(٣٢)

ومن يتفحص الأسباب الحقيقية لثورة السودان يجدها متعددة الأسباب، ففي الوقت

الذي ظهرت فيه ثـورة العلويين في الحجـاز، ضيق المنصور الخناق عليهـم مما سبب عـدم ارتياح مـن عامـة النـاس، خصوصـا قتلـه للثـوار وارسالـه أميراً ليبث الـرعب والخراب في البـلاد، فيزيـد الأحـوال سـوءاً، وهذه السيـاسـة كـافية لأن تظهـر ثـورة اجتماعية، لكي يتنفس النـاس مما حل بهم من مآس، علماً أن هنـاك من ارجع أسباب ثورة السودان إلى عوامل أخـرى، فيذكر طه الخاجري[٣٣] أن الهدف من قيامهم بثورة في المدينة على اعقاب ثورة محمد النفس الزكية، هو شعـورهم بالقوة، ولذا فانهم كانوا يهدفون إلى الحصول على سيطرة سياسيـة إدارية في أرض الحجاز تمكنهم من حصولهم على مكانة جيـدة في المجتمع، وأنا لا اتفق مع الأستاذ الخاجـري فيما قال، وإنما شدة المنصور وسوء تصرف الأمير عبدالله بن الـربيع والحجازيين كانا السبب الرئيسي لأن تقوم ثورة ضد الظلم والخراب والدمار، الـذي فعله جنود ابن الربيع، ايضاً لا استبعد ان يكون للعامل الاقتصادي اثر في قيام الثـورة، وذالك يتضح مما قام به السودان اثناء ثورتهم وتصـديهم لعبداللـه بن الربيع وجـوده، في أنهم في باديء الأمـر لاحقوهـم في أمـاكن متعددة من المدينـة، ثم رجعوا إلى مخازن الحبـوب والأطعمة الخاصـة بالخليفـة ورجاله في المدينة فنهبوها جميعها، وهذا التصرف يـوحي لنا بأنهم كانوا في حاجة ماسة إلى تحسين أوضاعهم الاقتصادية، وربما إلى سد رمقهم، والحاجة التي لحقت بهم[٣٤]، كذالك من المحتمل ان يكـون لأعيان المدينة وسـادة العبيد يد في قيام ثـورة السودان ضد عبدالله بن الـربيع وجنوده، فربما انهم قد أيدوهم وشجعوهـم للتصد ي لرجال الخليفة المنصور الذي قتل العلويين، وعـاقب من ساندهم في ثورتهم، وهذا الاحتمال يكون قويا إذا مارأينـا ماقاله السودان لأسيادهم عندما قامـوا بالثورة إذ يذكر الطبري انهم قـالـوا: (والله ماقمنـا إلا أنفـة لكم ممـا عمل بكم فـايـدينا مـع ايديكم وأمـرنـا إليكم)[٣٥] وهذا القـول فعلاً يـدل على أن العبيد قـد ثاروا بـرضا أسيادهـم، كذالك انهم لم يكـونـوا يتطلعون إلى الحصـول على زعـامـة أو نفـوذ سياسي كما ذكـر الاستـاذ الخاجري، أيضـاً في رواية أخـرى ذكرها الطبري في انهم قـالوا صراحـة إنما ثاروا وهم فعلاً لايتطلعون إلى أي نفوذ سياسي، فإن نجحت ثورتهم فإن الأمر يترك شورى في ان يعقد مجلس مكون من (أربعة من بني هاشم، وأربعة من قريش، وأربعة من الأنصار، وأربعة من الموالي، ثم الأمـر شورى بينهـم)[٣٦] في أن يختاروا مـن هو أصلح للخـلافة

وقيادة زعامة الأمة الإسلامية، وهذا القول أيضاً يخالف رأي الحاجري، وكيف يقدر العبيد أن يحصلوا على زعامة سياسية في بلاد الحجاز، في حين أن العلويين ومعهم غالبية الحجازيين لم يحققوا هدفهم، وإنما ثورتهم اصبحت هباء منثوراً أمام حنكة وصمود الخليفة المنصور.

(للبحث صلة)

ابها : د. غيثان بن علي بن جريس
رئيس قسم التاريخ ـ كلية التربية ـ فرع أبها

الحواشــي :

(١) انظر شمس الدين ابو العباس أحمد بن خلكان «وفيات الأعيان»، تحقيق احسان عباس (بيروت ١٩٦٨م) جـ ٣، ص ٧١، السيد عبدالعزيز سالم «تاريخ الدولة العربية» الاسكندرية ١٩٨٤م، ص ٧١ ومابعدها، عبدالأمير دكسن «الخلافة الأموية» ٦٥ ـ ٨٦/ ٦٨٤ / ٧٠٥ م(بيروت ١٩٧٣م) ص٩٩ ومابعدها

(٢) انظر ترجمة لداود بن علي في كتاب خير الدين الزركلي «الاعلام»، ط ٥ (بيروت ١٩٨٠) جـ ٢، ص ٣٣٣

(٣) أبو الفرج علي الاصبهاني «مقاتل الطالبيين»، تحقيق السيد أحمد صقر (بيروت تاريخ النشر بدون) ص ١٧٩

(٤) انظر تفصيل عن الدعوة السرية التي كان بنو العباس يسعون من خلالها لاسقاط دولة بني اميه ابو جعفر محمد بن جرير الطبري «تاريخ الرسل والملوك» تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة ١٩٦٠م) جـ ٧، ص ٤١٢ ومابعدها، أحمد شلبي «التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية»، ط ٤ (القاهره ١٩٧٠م) جـ ٢٣/ ١٩

(٥) انظر حول سياسة السفاح مع العلويين، أحمد بن يحيى البلاذري «أنساب الأشراف»، تحقيق محمد المحمودي (بيروت ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م) ، جـ٣ ص ٢٣٢، أحمد بن محمد بن عبد ربه «العقد الفريد»، تحقيق أحمد أمين وآخرين (القاهرة ١٩٦٧م) جـ٥، ص ٧٤، فاروق عمر «الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية» مجلة العرب، (١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م) جـ ١

(٦) الطبري «تاريخ» جـ ٧ ، ص ٥٢٢، البلاذري، «انساب»، جـ ٣، ص ٨٥ ـ ٨٦

(٧) ارسل الخليفة المنصور عدداً من الأمراء إلى كل من مكة والمدينة ليضبطوا له الأمن في بلاد الحجاز، ويقضوا على ثورة العلويين التي تزعمها محمد بن عبدالله بن الحسن، علماً ان أولئك الأمراء كانوا غير متساويين في سياساتهم وتنفيذهم أوامر الخليفة، وبعضهم اتصف بالحزم والقوه، كزياد بن عبيد الله الحارثي، والحسن بن زيد، ومحمد بن خالد القسري، إلا انهم كانوا متعاطفين مع العلويين لقرابتهم من الرسول ﷺ، لـذا فلم يشددوا القبضه عليهم، وإنما كانوا متساهلين معهم فلم يكن يسع الخليفة إلا أن يعزلهم ثم يعاقبهم بالسجن ومصادرة أموالهم، في حين انه كان هناك أيضاً ولاة آخرون امتازوا بالشدة والقسوة، خصوصا على العلويين والحجازيين بشكل عام، ومن أمثال اولئك الأمراء عثمان بن رياح المري، وعبدالله بن الربيع انظر تفصيلات اكثر، البلاذري، «انساب»، جـ ٣، ٨٥ ـ ٨٦، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥١٧ ومابعدها، ابو عبدالله الزبير بن بكار «اخبار الموفقيات»، تحقيق سامي العاني (بغداد ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م)، ص ٣٦٨، اسماعيل ابن علي بن كثير «البداية والنهاية» (بيروت والرياض ١٩٦٦م) جـ ١، ص ٢٦٢

(٨) البلاذري، «انساب» ٣/ ٨٥ ـ ٨٦، الطبري، «تاريخ» ٧/ ٥١٩، ابن كثير«البداية والنهاية»، ١/ ٨٤

(٩) انظر تفصيلات عن الثورة العلويه التي قامت في المدينه ضد دولة بني العباس في عهد الخليفة جعفر المنصور الطبري «تاريخ»،٧/ ٥٥٢ ـ ٦٠٩، مؤلف مجهول، «العيون والحدائق»، تحقيق ام دي غوى (لندن، ١٨٦٩م) ٣/ ٣٤٩ ـ ٣٥١، علي بن الحسين المسعودي «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، تحقيق شارل بلا (بيروت ١٩٦٦م) ص ١٤٥

J Lassner The Shapping of the Abbasid Rule (Princeton 1980) PP 70 2 I Omar Some Aspects of the Abbasid-Husaynid Relation During the Early Abbasid Period 132 193 A H 750-809 A D" Arabica, Vol XXII (1975) PP 170ff

(١٠) انظر للرسائل التي تبادلها الخليفة أبو الجعفر المنصور مع محمد النفس الزكية، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٦٦ ـ ٥٧١، فاروق عمر «الرسائل المتبادلة»، ص ٢٠ ومابعدها

(١١) انظر نفس المصادر والصفحات التي ذكرت في حاشية (٩)

(١٢) أبو عبدالله الزبير بن بكار، «أخبار الموفقيات»، ص ٣٣٩، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٧٨، ٦٠٣، حمد الجاسر «في شمال غرب الجزيرة»، نصوص، مشاهدات، انطباعات (الرياض ١٣٩٠ هـ/ ١٩٩٧٠م) ص ٢٠٩

(١٣) انظر الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٨٢

(١٤) انظر تفصيلات حول تلك الاختلافات في الرأي، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٧٢ ــ ٥٧٣، ٥٨٠ ـ ٥٨٢، ٥٨٦ ومابعدها

(١٥) و (١٦) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨، ٥٧٩، ٥٨٧ ـ ٥٨٩، ابن بكار، «أخبار الموفقيات»، ص ١٨٦

(١٨) و (١٩) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٨٢

(٢٠) اشارت بعض المصادر إلى الفتوى التي أفتى بها الامام مالك لأهل الحجاز على ترك بيعة الخليفة المنصور والانضمام الى العلويين الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٦٠، مؤلف مجهول، «العيون والحدائق»، جـ ٣، ص ٢٩٨، ابن كثير، «البداية والنهاية»، جـ ١٠، ص ٨٤، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي «تاريخ الخلفاء»، تحقيق محي الدين عبدالحميد (القاهرة ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢م) ص ٢٦١

(٢١) انظر في الصفحات السابقة من البحث نفسه

(٢٢) ابن بكار، «اخبار الموفقيات»، ص ١٨٦، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٧٩

(٢٣) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٥٠، ٥٩٠

(٢٤) البلاذري، «انساب الاشراف»، جـ ٣، ص ٨٨ ومابعدها، مؤلف مجهول، «العيون والحدائق»، جـ ٣، ص ٢٣٥

(٢٥) أبو عبدالله محمد بن مسلم بن قتيبة «الامامة والسياسة»، تحقيق طه الزيني (بيروت ١٣٧٨ هـ/ ١٩٦٧م) جـ ٢، ص ١٤٨، المؤلف نفسه المعارف، تحقيق ثروت عكاشه (القاهرة ١٩٦٠م) ص ٤٩٩، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٥٦٠، مؤلف مجهول، «العيون والحدائق»، ص ٢٩٨

(٢٦) انظر نفس المصادر والصفحات التي في تعليق (٢٠)، (٢٥)

(٢٧) من الأمراء الذين ارسلهم الخليفة المنصور إلى الحجاز، زياد بن عبد الله الحارثي، والحسن بن زيد، ومحمد بن خالد القسري، وعثمان بن رياح المري، وعبدالله بن الربيع

(٢٨) ابن بكار، «اخبار الموفقيات» ص ١٨٦

(٢٩) لقد ترك الخليفة أبو جعفر المنصور لولده المهدي دولة مترامية الأطراف، خالية من الفوضى والاضطرابات الداخلية، إلى جانب انه ترك له خزانة وافرة بالمال، علما انه صادر أموالاً كثيرة من العلويين وغيرهم من الثوار في بلاد الحجاز، إلاّ انه عندما حضرته الوفاة كان قد ترك بعض النصائح لولده، كأن يحسن إلى بعض من أساء لهم ـ الخليفة المنصور ــ وخصوصا من الترشيين فيدفع لهم الهدايا والأعطيات، بل ويوليهم المناصب الادارية، فكان جعفر بن سليمان ضمن من انطبقت عليه نصائح الخليفة المنصور

(٣٠) الطبري، «تاريخ» جـ ٧، ص ٥٥٦، ٦٥٦، ابن كثير، «البداية والنهاية»، جـ ١٠، ص ٨٤

(٣١) لقد أشار الطبري إلى أعمال عبدالله بن الربيع كأمير في بلاد الحجاز خلال عهد الخليفة المنصور، «تاريخ الرسل والملوك»، جـ ٧، ص ٦١٠ ومابعدها

(٣٢) أحمد بن يعقوب اليعقوبي «تاريخ اليعقوبي»، تحقيق أم هوتسما (ليدن ١٨٨٣م) جـ ٢، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢، الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٦١٠ ــ ٦١٤، عز الدين ابو الحسن ابن الاثير «الكامل في التاريخ»، تحقيق س تورنبرق (بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م) جـ ٥، ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧

(٣٣) طه الحاجري «الجاحظ، حياته وتراثه» (القاهرة ١٩٦٩م) جـ ٢، ص ٢٤٣

(٣٤) و (٣٥) و (٣٦) الطبري، «تاريخ»، جـ ٧، ص ٦١١، ٦١٢